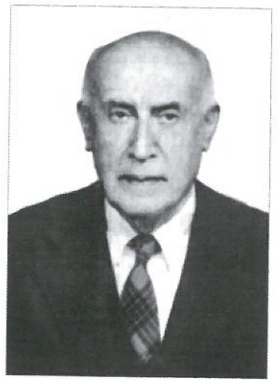

LAU
الجامعة اللبنانية الأميركية
Lebanese American University
مرايا التراث
العدد التاسع – خريف ٢٠١٨/ شتاء ٢٠١٩
مَلَفّ العدد
نافذة على نجمة بيروت
• عفيفة كرم رائدة الرواية في الأَدب العربي
• يوسف الحويك رائد النحت في لبنان
• حميد فرنجية: رجل الاستقلال والمواقف
• ذاكرةُ تُراثنا في أَعمال أَنيس فريحة

دعا إلى إحياءِ التُراثِ الشَعبيِّ بِوَجْهِهِ المُشْرِق
وكشَفَ للُبنانيين ثرواتٍ رائعةً في عاداتهم والتقاليد

ذاكرةُ تُراثنا التاريخيّ/الاجتماعيّ في أَعمال أنيس فريحة

د. إيلي حليحل
باحث في التاريخ القديم



الدكتور أنيس فريحة
(١٩٠٣-١٩٩٢)

ولد أنيس فريحة في قرية رأس المتن. تلقّى علومه الثانوية في مدرسَتَي الشويفات وسوق الغرب، والجامعية في الجامعة الأميركية – بيروت، ثم أكمل دراساته العليا في ألمانيا والولايات المتّحدة الأميركيّة، حتى نال شهادة الدكتوراه في اللغات الساميّة من جامعة شيكاغو. درَّسَ اللغات وخصوصًا الساميّة منها، وتاريخ الشرق الأدنى القديم وتاريخ الحضارات. درّس في الجامعة الأميركيّة في بيروت وألقى محاضرات في معهد الدراسات العربيّة التابع لجامعة الدول العربيّة. حلَّ أستاذًا ضيفًا لدى جامعات في لندن وفرانكفورت وكاليفورنيا، وتوّج مسيرته الأكاديميّة في الجامعة اللبنانيّة.

حَظِيَ لبنانُ بِنُخبَةٍ مُفكِّرين وأكاديميّين أغنَوا المكتباتِ بإصداراتٍ وفيرةٍ في العلوم الإنسانيّة، وفي مُقدَّمِها علمُ التاريخ، أبرزُهم **فيليب حتّي وجواد بولس وأسد رستم وكمال صليبي وجان شرف**، وآخَرون خلَّفوا ذخيرةً واسعةً في تاريخِ لبنانَ السياسيِّ والدينيِّ والاجتماعيِّ[١]، عالجوا في مؤلَّفاتِهم مسائلَ وإشكاليَّاتٍ تاريخيَّةً مُتنوِّعَة، انضوتْ تَحْتَ عناوينَ واضِحَة، التِزامًا منهُم بقواعِدِ التأْريخِ ومناهِجِه، فضلاً عن تخصُّصِهِم الأكاديمي.

١) فيليب حتي، **تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخيّة إلى عصرنا الحاضر**، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٢؛ جواد بولس، **التحولات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الاسلام**، دار عواد للطباعة، بيروت، (ب.ت)؛ أسد رستم، **مصطلح التاريخ**، المكتبة العصريّة، صيدا، ١٩٥٥؛ كمال الصليبي، **تاريخ لبنان الحديث**، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٣؛ جان شرف، **الإيديولوجية المجتمعية**، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٩٦.



في هذه المَقالة أُعالج مؤلّفاتٍ لأنيس فريحة ضمّت مادّةً تاريخيّةً غنيّةً استثنائيّةً في طيّاتِ نِتاجِهِ الغزير في العلوم الإنسانيّة. وهو لَمْ يَتَخَصَّصْ في اللُّغاتِ الساميّةِ والميثولوجيا لِقَرارٍ مُسْبَقٍ بِكِتابَةِ التاريخ، بل تَعَمُّقُهُ في هذِهِ العُلومِ وَسِواها مِنَ العُلومِ الإنْسانيَّةِ التي اغتنت بها تَجارِبُهُ الأكاديميَّةُ والبَحْثِيَّةُ، أدّى إلى انْفِتاحِهِ وَتَلَمُّسِهِ حَقائِقَ تاريخِيَّةً واسِعَةً خصوصًا في شؤُونِ العاداتِ والتّقاليد.

كَتَبَ أنيس فريحة في الفولكلور ممَّا خَبِرَهُ طيلةَ مشْوارِه، مُنْذُ طفولته فمُخْتَلِفِ مراحِلِ حَياتِه مُراهِقًا طالِبًا باحِثًا مُدرِّسًا، ومُتَجَوِّلاً في بلدان عدّة. اسْتَحوَذَتْ على وُجْدانِهِ التاريخِيِّ ظواهِرُ دينيّةٌ واجْتِماعِيَّةٌ عَبَّرَ عنها في خُلاصاتٍ اسْتِنْتاجِيَّةٍ بلغَها خبيرًا في الميثولوجيا وتاريخِ اجتماعِيٍّ غَلَبَ عَلَيْهِ التُراثُ اللُّبنانِيّ، فَضْلاً عَنِ اللُّغاتِ الساميَّة.

من هذه المُعطيات سأعرِضُ أبرز عناصِرَ وَسَمَتْ مؤلّفاته وَمَنَحَتْها طابعًا خاص.

١. ميزة فريحة في التأْريخ الاجتماعي

كثيرون من المؤرِّخين اللبنانيّين والغربيّين وعُلماءِ الاجتماع والرُّواةِ والأدبِ الشَّعْبِيّ، جمعوا العاداتِ والتقاليد في لبنان ودرسُوها وحلّلوها، وأصدروها في مُؤلّفات. بينها **قصّة فنيانوس** لشكري الخوري، **رسائل شموني** لحنّا الفغالي، **الأمير الأحمر** لمارون عبّود، ومؤلّفاتٌ عدّةٌ لِسَلام الراسي وبولس سلامة وجوزف نعمة ويوسف إبراهيم يزبك ولحد خاطر وسواهم كثيرون[٢]. وهُم جمعوا التُّراثَ الشعبيّ للمُجتمع ذاكرةً اجتماعيّةً حَفِظَتْ هذه العاداتِ والتقاليدَ من النِسْيانِ أو الضَياع. لم تَكُنْ دراساتُهم شموليّةً بِمَضمونِها، ولم يرُدُّوها إلى جُذورها التاريخيَّةِ في دراساتٍ صدرت عنها، بينما فريحة راعى التنوُّعَ البحثيَّ في مُقاربتِهِ العاداتِ والتقاليدَ وأعاد ربطها بِمَنْشَئِها فأعطاها بُعْدًا تاريخِيًّا واجتماعيًّا ودينيًّا.

٢) شكري الخوري، **قصّة فنيانوس**، تحقيق سليم قهوجي، منشورات جامعة الروح القدس، الكسليك، ٢٠٠٩؛ حنّا الفغالي، **رسائل شموني**، (ط. ١)، مطبعة جريدة الدبّور، بيروت، ١٩٤٨؛ مارون عبّود، **الأمير الأحمر**، (ط. ١)، دار نظير عبّود للطباعة والنشر، جونية، ٢٠١٢؛ سلام الراسي، **في الزوايا خبايا**، دار نوفل، بيروت، ٢٠٠٦؛ لحد خاطر، **العادات والتقاليد اللبنانية**، ج. ١-٢، مطبعة الجبل، درعون، ١٩٧٧.

٢. الدوافع، المصادر، الصيغة

خُلاصاتُ الفِكْرِ الدينيِّ والإجْتِماعِيّ، وَما تَمَخَّضَ عَنْها في العاداتِ والتَقاليدِ اللُّبْنانِيَّة، جاءت نَتيجَةً لِمُرْتَكَزاتٍ عِلْمِيَّة عَمِلَ فريحة على جَمْعِها وَتَنْقيحِها حَتّى صدرت في مَعاجِمَ وَكُتُب. لَمْ يَطْرَحْها كَمَصادِر لكنها شَكَّلَتْ له أُصولاً، أوْ أقَلَّه مَراجِعَ مِنْ صُنْعِه، منها نتاجُه في الألفاظِ العامِيَّة، ما مَكَّنَهُ مِنَ الإحاطَةِ بالعامِيَّةِ اللُّبْنانِيَّة في طَريقِهِ إلى وُلوجِ الفُولْكْلورِ اللُّبْنانِيِّ بِفَهْمٍ عَميق[٣]. وَلَهُ في السياق ذاته دِراساتٌ في الألْسُنِيَّة، كَتِلْكَ المُخْتَصَّةِ بِتَفْسيرِ مَعاني أسْماءِ الأشْهُرِ العَرَبِيَّة وَسِواها مِنَ الدِراساتِ اللُّغَوِيَّة[٤]. واهتمَّ فريحة بالأمْثالِ العامِيَّةِ اللُّبْنانِيَّة في صُلْبِ التأْريخِ الاجْتِماعِيّ، فجمعَ الأمثالَ الشَّعْبِيَّة في قَرْيَتِه ضمّها كِتابَهُ **الأمثال العاميّة اللبنانية من رأس المتن**[٥].

وهو اعْتَمَدَ صِيَغًا مُتَنَوِّعَةً في عَرْضِهِ العاداتِ وَالتَقاليد، وَانْتَقى الصيغَةَ المُناسِبَةَ لِكُلٍّ مِنَ المَسائِلِ التي تَناوَلَها، كما في كتابه عن الأمْثالِ العامِيَّةِ اللُّبْنانِيَّة. كانَتْ الدَوافِعُ وَالمُبَرِّراتُ وَالغايَةُ واضِحَةً وَجَلِيَّةً فجاءَتْ الصيغَةُ التاريخِيَّةُ بَسيطَةً وَسَهْلَةً تتيح الاطِّلاعَ على المَضْمونِ دونَما حاجَةٍ إلى جَهْدٍ وَتَمْحيص. وكذلك فَعَلَ في مُعْجَمِ الألْفاظِ العامِيَّة، مُعينًا رَفَدَ الدِراساتِ الفُولْكْلورِيَّةَ بِحَقائِقَ ووقائع عَنِ المُجْتَمَعِ القَرَوِيِّ اللُّبْنانِيّ. ولِهَذين الكتابَين أهمية تَوْثيقِيَّة بحيث أتَتْ مُحْتَوَياتُهُما نِتاجَ أبْحاثٍ عَميقَةٍ وَطَويلَةٍ قامَ بها فريحة.

سيرَتُه الذاتيَّةُ وردَت أوّلاً في كِتابِه **إسْمَعْ يا رضا**، ولا تَسْتَدْعي جُهْدًا لِكَشْفِ صيغَتِها التاريخِيَّة[٦]. سَرَدَ فيها مَسيرَتَهُ الاجْتِماعِيَّةَ وَالأكاديميَّة، وأرْفَقَ في مَحَطّاتِها بِجَوانِبَ هامَّةٍ مِنَ الحَياةِ القَرَوِيَّة، وصِفاتٍ وَسِماتٍ تَتَّصِلُ بِواقِعِ المُجْتَمَعِ اللُّبْنانِيِّ وبِالسُلوكِ والرّوحِيَّةِ وَبَساطَةِ العَيْشِ في عَصْرِه. وتَتَمَيَّزُ هذه الصيغَةِ بِحُضورِ المُؤَلِّفِ شَخْصِيًّا، مع الميل إلى

٣) أنيس فريحة، **معجم الألفاظ العامية في اللهجة اللبنانية**، مطبعة المرسلين اللبنانيين، جونية، ١٩٤٧.

٤) أنيس فريحة، **أسماء الأشهُر العربية ومعانيها**، دراسة فيلولوجية تاريخية، دار العلم للملايين، ١٩٥٢.

٥) أنيس فريحة، **الأمثال العامية اللبنانية من رأس المتن**، منشورات الجامعة الأميركية، بيروت، ١٩٥٣.

٦) أنيس فريحة، **اسمع يا رضا**، مطبعة الكريم، جونية، ١٩٦٥.

الوُجْدانِيَّةِ وَالتَأْريخِ الحدثيِّ الخاصّ، ضمن تَسَلْسُلٍ زَمَنِيٍّ على خُطى فريحة وَرِحْلَتِه الطويلة.

اخْتَفَت العَناوينُ الثانَوِيَّةُ أوْ المُكَمِّلَةُ بِناءَ الصيغَةِ التاريخِيَّةِ، لِانْتِفاءِ الحاجَةِ إلَيْها. فهذا النوع من المُؤَلَّفات لا يُمْكِنُ إخْضاعُه تَمامًا لِلْنَقْد بل هو تَسْجيلُ نَمَطٍ مِنْ أنْماطِ بِناءِ الصِيَغ لدى فريحة. وهو كرّر ذلك في كِتابِهِ **قبل أن أنْسى**، فَضَمَّنَهُ ما فاتَهُ في مُؤَلَّفِهِ الأَوَّل، فَضْلاً عَنِ الوَقائِعِ وَالأَحْداثِ التي اسْتَجَدَّتْ لَدَيْه[٧].

لَمْ تَتَّصِف المُؤَلَّفاتُ الأُخْرى بِالسُهولَةِ نَفْسِها، بل احْتاجَتْ إلى صِيَغٍ تَتَناسَبُ وَطَبيعَةَ المَسائِلِ المُثارَة. فَالعاداتُ وَالتَقاليدُ تَدْخُلُ في النَشاطِ الإنْسانِيِّ الواسِع وَالكَثيفِ وَالمُعقَّد، بِحَيْثُ لا تَنْفَعُ في اكْتِشافِ مَعالِمِهِ صيغَةٌ مُحَدَّدَةٌ أوْ نَموذَجٌ تاريخِيٌّ مُوَحَّدٌ كَذَلِكَ المُعْتَمَدِ في العُلوم البَحْتَة التي تَنْطَبِقُ أوْصافُها في كُلِّ زَمانٍ أوْ مَكان. حَتّى التاريخُ الحَدَثِيّ الذي أرْسَتْ قَواعِدَهُ المَنْهَجِيَّةَ المَدْرَسَةُ الوَضْعِيَّة تَتَطَلَّبُ مَواضيعُهُ اتِّباعَ صِيَغٍ مُتَنَوِّعَةٍ قَبْلَ عَرْضِها في مُؤَلَّفات. لِذا تَميّزَ فريحة بِالدِقَّةِ والحَذَرِ في عَرْضِهِ العاداتِ وَالتَقاليدَ، وَحَدَّدَ عَناوينَ واضِحَةً وَإشْكالِيَّةً تَنْتَهي إلى إجاباتٍ على تَساؤُلٍ مَرْكَزِيّ، فَجَرَّدَ لِذَلِكَ عَناوينَ ثانَوِيَّةً مُتَنَوِّعَةً وَوَضَعَها في خِدْمَةِ العُنْوانِ المَرْكَزِيّ مُحاوِلاً قَدْرَ المُسْتَطاعِ الالْتِزامَ بِمَضْمونِ البَحْثِ وَالغايَةِ مِنْه، مَع تَسْجيلِ اسْتِطْراداتٍ في مَواضِعَ عِدَّة.

وخصص فريحة مُؤَلَّفًا لِلْقَرْيَةِ اللُبْنانِيَّة، لِما يَتَضَمَّنُ مِنْ عَناصِرَ راسِخَةٍ يُمْكِنُ وَصْفُها بِالقاعِدَة، أتَمَّ بِموجِبِها بِناءَ الصيغَةِ التاريخِيَّةِ العامّة، فجاء كتابُهُ الأبْلَغَ في هذا المَجال[٨].

لَمْ يَنْطَلِق في عَرْضِهِ العاداتِ وَالتَقاليدَ اللُبْنانِيَّةَ مِنْ مَنْظورٍ شُمولِيٍّ لِهذا التُراث، بل تَوَخّى إثارَةَ إشْكالِيَّةٍ اجْتِماعِيَّةٍ وَوَطَنِيَّةٍ رئيسة. فالعاداتُ وَالتَقاليدُ الشعبيّة انْدَرَجَت في ما يشبه النِداء بأَنَّ حَضارَةَ القَرْيَةِ اللُبْنانِيَّةِ في طَريقِها إلى الزَوال. لذا طرح مِنَ الفُولْكْلورِ اللُبْنانِيّ عاداتٍ انْدَثَرَتْ مع الزَمَن، مركّزًا على تِلْكَ الآخِذَةِ بِالتَراجُعِ وَالتَآكُل. إلاّ أنَّ القارِئَ يَكْتَشِفُ جَوانِبَ أُخْرى مِنَ الفُولْكلورِ اللُبْنانِيّ لا تَزال ناشطةً لَكِنَّها حَلَّتْ عَناوينَ ثانَوِيَّةً بعد العَناصِرِ الرئيسَة، فأكملت مُمارَساتٍ وَطُقوسًا لَمْ يَشَأْ فريحة اقْتِطاعها مِنَ السُلوكِ الاجتِماعِيِّ العام.

٧) أنيس فريحة، **قبل أن انسى**، دار النهار للنشر،١٩٨٠.

٨) أنيس فريحة، **حضارة في طريق الزوال «القرية اللبنانية»**، مطبعة الكريم، جونية، ١٩٥٧.

رافَقَ فريحة السُلوكَ الاجْتِماعِيَّ حَتّى إذا طَرَأَ تَبَدُّلٌ عَلَيْهِ أوْ انْحِرافٌ أجْرى مُراجَعَةً لِلْحالِ الذي سَبَق وسَجَّلَ الواقِعَ الجَديدَ بِالمُقارَنَة. هكذا حَلَّتْ عَناوينُ مُخْتَلِفَةٌ ومُبَعْثَرةٌ في كِتابِهِ **سوانح من تحت الخروبة**[٩]. ولأنها انْدَرَجَتْ في العاداتِ وَالتَقاليدِ وَالخَصائِص اللُبْنانِيَّة حافَظَتْ على تَماسُكٍ في المَضْمون واتَّخَذَتْ طابَعًا وُجْدانِيًّا بِالدَعْوَةِ إلى الحِفاظِ على الفَضائِلِ اللُبْنانِيَّة، والتَنْبيهِ مِنْ أوْجُهٍ سَيِّئَةٍ للذِهْنِيَّةِ الاجتِماعِيَّةِ السائِدَةِ عند صُدورِ الكتاب.

٣. العلوم الموصِلة

وَضَعَ فريحة في خِدْمَةِ التَأْريخ الإجْتِماعِيّ عُلومًا مُوصِلَةً تَنْدَرِجُ ضمن تَخَصُّصِهِ العِلْمِيّ ومَعارِفِهِ العِلْمِيَّةِ فاسْتَخْدَمَ حاجَتَهُ مِنْها في التاريخ الاجتِماعِيّ، جاعِلاً مِنْها عُلومًا موصِلَة. فمُعْظَمُ ما جاءَ في نتاجه يُشيرُ إلى مَعارِفَ عَميقَةٍ وَمُتَنَوِّعَةٍ لَديه، ظَهَرَتْ مُتَباعِدَةً وَمُنْتَشِرَة، لذا تجبُ دراستُها على مُسْتَوى أهَمِيَّتِها وَتَأْثيرِها في مُؤَلَّفاتِه. ومُتابعةُ العُلومِ الموصِلَةِ أو المُساعِدَة شملت مُعظَمَ مُؤَلَّفاتِ فريحة، ولم تَقتصرْ على تِلْكَ المُخَصَّصَةِ أو التي احتوَتْ على عاداتٍ وتَقاليدَ دينِيَّةٍ وَاجْتِماعِيَّة. لذا أكتفي بِعَرْضِ الخُطوطِ العَريضَةِ لِهَذِهِ العُلوم، تارِكًا لِأصْحابِ الاخْتِصاصِ في الأَلْسُنِيَّةِ وَعِلْمِ قِراءَةِ الخُطوط وَعِلْمِ الإجْتِماعِ والأنتروبولوجيا، الغَوْصَ في مَضْمونِ نِتاجِ فريحة وَتَحْديدَ ما بَلَغَهُ فيها عِلْمًا واحْتِرافًا.

الباحِثونَ وَالمُنَظِّرونَ لِمَنْهَجِ البَحْثِ التاريخِيّ يُجْمِعُون على ضَرورةِ إتْقانِ المُؤَرِّخِ اللُّغات أُصول البحث، خُصوصًا تلْك التي لا يُمْكِنُ الاسْتِغناءُ عَنْها كَوَسيلَةٍ لِلْاطِّلاعِ على المَعْلوماتِ التاريخِيَّةِ العائِدَةِ لِلْشُعوب وَالحَضاراتِ المَعْنِيَّةِ بِالبَحْث. وَإمْكاناتُ فريحة اللُغَوِيَّة، على تَنَوُّعِها، تُظْهِرُ تَمَكُّنًا لَدَيْه، مِنْها اللُغَاتُ الفَرَنْسِيَّة والانكليزيَّة وَالأَلْمانِيَّة، ومنها اللُغاتُ القَديمَة، كاللاتينِيَّة، وهو عرضَ لها في كِتابِهِ **إسمع يا رضا** ذاكرًا كيفيّةَ تَلقّيه اللُغَةَ السريانِيَّة[١٠]. وأخذت اللُغاتُ السامِيَّةُ حَيِّزًا واسِعًا في مُؤَلّفاتِه، وَتَوَزَّعَتْ بَيْنَ اللَهْجاتِ العَرَبِيَّةِ وَاللُغاتِ الآرامِيَّةِ والسِرْيانِيَّةِ وَالعِبْرِيَّة.

مَعْرِفَةُ فريحة العَميقَةُ بِبَعْضِ اللُغاتِ وَإلْمامُهُ بِبَعْضِها الآخَر شَكَّلَتْ عامِلاً مُساعِدًا وَعَلامَةً فارِقَةً رَفَدَتْ نِتاجَهُ بِوافِرٍ مِنَ الحَقائِقِ التاريخِيَّةِ

٩) أنيس فريحة، **سوانح من تحت الخروبة**، جروس برس، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.

١٠) أنيس فريحة، **اسمع يا رضا**، مطبعة الكريم، جونية، ١٩٦٥، ص. ١٠٥.



المَوْثوقَة، فَأتاحَتْ لَهُ حُرِيّةَ التَنَقُّلِ على مَساحَةٍ واسِعَةٍ مِنَ الحَضاراتِ والشُعوب، وَمَكَّنَتْهُ مِنَ الإيغالِ في عُمْقِ المَسائِلِ التاريخِيَّةِ والدينِيَّةِ والاجتِماعِيَّة، وخصوصًا العادات والتَقاليد، فتعامَلَ بِديناميَّةٍ اسْتِثْنائِيَّةٍ إزاءَ المَوْضوعاتِ المُتَقاطِعَةِ في الشَكْلِ وَالمَضْمونِ وَالأُطُرِ الجُغْرافِيَّة، كما ظهرت أيضًا في مقالاته العِلْمِيَّةِ القَصيرَة، المُتَضَمِّنَةِ عَناصِرَ بَحْثِيَّةً مُتَنَوِّعَةً وَكَثيفَة[١١].

الإمْكاناتُ اللُغَوِيَّةُ المُرْتَفِعَةُ وَالمُنَوَّعة اسْتَدْعَتْ تَلازُمًا مَعْ رَديفِها الجُغْرافيّ. وهو سَرَدَ الْمَحَطّاتِ الرَئيسِيَّةَ لِحَياتِهِ وَمَسيرَتِهِ العِلْمِيَّةَ المَلْأى بالسَفَرِ وَالتِرْحال، ما يُثْبِتُ أنَّهُ على دِرايَةٍ وافِيَةٍ ومعرفةٍ جغرافية مزدوجة تَجْمَعُ بَيْنَ الخارِطَةِ الجُغْرافِيَّةِ الحَديثَة (بركائِزِها القُطْرِيَّةِ وَالقَوْمِيَّةِ وَالديمُغْرافِيّة القائِمَةِ على أساسِ القانونِ الدَوْلِيّ)، وَبَيْنَ العالَم القَديم المُرْتَكِزِ على تَوَزُّعِ الحَضارات المبنيّة على عناصِرَ اقْتِصادِيَّةٍ وَفِكْرِيَّةٍ وَاجتماعيّة، تَحَكَّمَتْ بِالحراكِ السُكّانيِّ آنَذاك. وبِـ«تَبَدُّلِ الخارِطَة» أقصد المُعْطى البَشَرِيَّ المُتَحَرِّكَ على الثابِتِ الجُغْرافِيّ، رافَقَهُ فريحة بِاخْتِلافِ الحَقَباتِ التاريخِيَّة.

لَمْ يَكْتَفِ فريحة بِالتَحْصيلِ اللُغَوِيِّ إلْمامًا واخْتِصاصًا، بَلْ شَقَّ طَريقًا باتِّجاهِ عِلْمِ قِراءَةِ الخُطوط، وحَقَّقَ قِسْطًا وافِرًا مِنْ هذا النِتاجِ عَبْرَ تَرْجَمَةِ نُصوصٍ قَديمَة لِمَلاحَمَ وَأساطيرَ مِنْ أوغاريت الكِنْعانِيَّة[١٢] وَمَثيلاتِها مِنَ الأدَبِ الساميِّ القَديم في بِلادِ ما بَيْنَ النَهْرَيْن[١٣]. وَبَعيدًا مِنَ التَدَخُّلِ في عَمَلِيَّةِ التَرْجَمَةِ بِشِقِّها التِقَنيّ، أوْغَلَ فريحة في المَلْحَمَةِ وَالأُسْطورَة مُسْتَفيدًا مِنَ الاطِّلاعِ على روحِ تَحَكَّمَتْ بِمَسارِ شُعوبٍ وَحَضاراتٍ قَديمَة بِأبْعادِها وَعَناصِرِها وَرموزِها الفِكْرِيَّةِ الدينِيَّةِ وَالاجتِماعِيَّة.

وتمايز فريحة عَنْ مُؤَرِّخينَ عَرَب كَتَبوا في التاريخِ القَديم، بإيلائِهِ الدِراساتِ السامِيّةِ ما تَسْتَحِقُّهُ مِنْ عِنايَة. فهو أحَدُ قلائِلِ عاصَروا النَهْضَةَ الاستِكْشافِيَّةِ في مَطْلِعِ القَرْنِ العِشْرين واسْتَجابوا لَها بِحَماسَة. واقْتَرَنَتْ حَماسَتُهُ في إنْشاءِ مَدْرَسَةٍ جديدةٍ وَمُتَطَوِّرَةٍ في المَشْرِقِ العَرَبِيّ، كَتِلْكَ القائِمَةِ آنَذاك في الغَرْبِ الأوروبِيّ، تقومُ على تَرْجَمَةِ النُصوصِ الميثولوجِيَّة.

---

١١) أنيس فريحة، **دراسات في التاريخ**، دار النهار للنشر، ١٩٨٠.

١٢) أنيس فريحة، **ملاحم وأسطير من أوغاريت (رأس شمرا)**، منشورات الجامعة الاميركية، بيروت، ١٩٦٦.

١٣) أنيس فريحة، **ملاحم وأساطير من الأدب السامي**، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٦٧.

هكذا ترجم **مَلاحِمَ وَأساطيرَ مِنْ أوغاريت**، و**ملاحم وأساطير من الأدَب السامي القَديم**، فكان المُؤَرِّخَ العربيَّ الوحيد في عَصْرِه بخوض هَذِهِ المُغامَرَة متعرّضًا لنَقْدِ أصْحابِ الاختِصاص، وفي مُوازاةِ عُلَماءِ غربيّين سَبّاقينَ في الكَشْفِ عَنِ اللَوْحاتِ الأثريّة وَدِراسَتِها، من أمثال **بوتيرو وكاكو ودوسو** و**فيرولو وغاستر وشيفر** وغيرهم[١٤].

إذا كانَ التَعَرُّفُ على فَحْوى **الميثولوجيا** وَدَلالاتِها أمْرًا مُتاحًا وَضَرورِيًّا في نتاج المُؤَرِّخينَ وَعُلَماءِ الاجْتِماع و**الأنتروبولوجيا**، شَرْطًا أساسِيًّا وَمَعْبَرًا إلْزامِيًّا لِوُلوجِ الحَقَبَةِ التاريخِيَّةِ القَديمَة، فَفريحة بَلَغَ مَقاصِدَهُ مُباشَرَةً وَبلَمْسِ اليَد. ولأن تَصَفُّحَ التَرْجَماتِ المُخْتَصَّةِ بِالمَلاحِم وَالأساطير، مَهما اتَّصَفَتْ بِالصدْقِيَّةِ وَالحِرَفِيَّة، لا يَرْتَقي إلى مَرْتَبَةِ التَحْقيقِ وَالإنْجازِ العَمَلِيّ، كان من تَخَصُّصَ فريحة في تَرْجَمَةِ النُصوصِ السامِيَّة أن زَوَّدَهُ بِعِلْمٍ موصِلٍ إلى كشفه غَوامِضَ التاريخِ القَديم.

من هَذِهِ الميزَةِ لَدى فريحة، وباستكشاف فَعالِيَّتِها في التَوْثيقِ وَالتأْريخ، يتّضح أن تَرْجَمَةَ النُصوصِ القَديمَةِ وَما يَنْبَثِقُ عَنْها على المُسْتَوى التِقَنِيِّ وَالعِلْمِيّ، تَخْضَعُ لِشَخْصِيَّةِ المُتَرْجِم وَثَقافَتِهِ وَمَعارِفِهِ الخاصَّةِ والعامَّة. وفريحة في مقدّمة كتابه **ملاحم وأساطير من الأدب السامي القديم**، ذكر أنَّهُ أخْرَجَ عَمَلِيَّةَ التَرْجَمَةِ بِعض التَصَرُّف حرْصًا مِنْهُ على تَشْجيع القُرّاءِ لِلإقْبالِ عَلَيْها بِجَميعِ فِئاتِهِم، وَتَمْكينِهِم مِنْ فَهْمِها بِسُهولَة. ويَنْسَحِبُ المَبْدَأُ ذاتُه على طريقَةِ اسْتِخْدامِه هذا المُعْطى في مُؤَلَّفاتِهِ ذاتِ الطابَعِ الدينِيِّ وَالاجتِماعِيّ، مع أنَّ اسْتِنْتاجاتِه تتَرَتَّبُ عَلَيْها مَسْؤولِيَّة تاريخِيَّة، وَما تَؤولُ إلَيْه مِنْ خُلاصاتٍ وَمَضامينَ، في الفِكْرِ الدينِيِّ وَالعاداتِ وَالتَقاليد وَالذِهْنِيَّةِ الإجْتِماعِيَّةِ وَالسُلوكِ البَشَرِيِّ عُمومًا. من هنا الصَلابَةُ وَحُسْنُ التَحَكُّمِ وَالثِقَةُ بِإمْكاناتِه في اسْتِخْدامِهِ التَرْجَماتِ عِلْمًا مُساعِدًا، إذ بَرَزَتْ واضحَةً ذخيرَته العِلْمِيَّة وانْتَشَرَتْ بِانْسِجامٍ مَع العَناصِرِ البَحْثِيَّةِ الأُخْرى، حين دَعَتْ الحاجَةُ إليْها.

دِراسَةُ العاداتِ وَالتَقاليدِ تَجْنَحُ إلى عِلْمِ الاجْتِماع لأن طَبيعَتَها تَفْرِضُ الْتِئامًا عُضْوِيًّا مَعَه حتى ليصعب الانْفِصامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِلْمِ التاريخ. إلاّ أنَّ

---

١٤) J. BOTTERO – S. KRAMER, *Lorsque les dieux faisaient l'homme,* mythologie mésopotamienne, Editions Gallimard, Paris, 1993; A. CAQUOT – M. SZNYCER – A. HERDNER, *Textes Ougaritiques I. Mythes et légendes,* (Coll. LAPO), Paris, 1974; A. CAQUOT – M. TARRAGON - J.L. CUNCHILLOS, *Textes Ougaritiques II. Textes religieux et rituels, Correspondance,* (Coll. LAPO), Paris, 1989.



قَواعِدَ التَّأْريخ تَفْرِضُ تَثْبيتَ العَناصِرِ التاريخيَّة، وَتَحْديدَ العُلومِ المُساعِدَةِ المُحيطَةِ بها. ومقاصدُ فريحة مِنْ مُعالَجَةِ العاداتِ وَالتَّقاليد ذكرَها واضحةً بتصدّيه لها مِنْ مُنْطَلَقٍ تَأْريخيٍّ، حِفاظًا على إرْثٍ حَضاريٍّ فُولْكْلوريٍّ يُخْشى عَلَيْهِ مِنَ الضَياعِ وَالانْدِثارِ بِفِعْلِ مُرورِ الزَمَن[15]. جاء إعلانه هذا في مَعْرِضِ جَمْعِهِ العاداتِ وَالتَقاليدَ اللُّبْنانيَّةَ أساسًا في مُؤَلَّفاتِهِ ذاتِ الطابَعِ الإجْتِماعِيِّ، إنما هذه الموجبات لَمْ تَنْسَحِبْ على مَساحَةِ العاداتِ وَالتَقاليدِ الأُخرى، لاسيّما العَرَبِيَّةِ مِنْها، وَإنْ تَقاطَعَتْ مَعَها بِالأُسْلوبِ والنَتائِجِ في مَواضِعَ عِدَّة.

تجنّبَ فريحة الظُهورَ بِمَظْهَرِ عالِمِ الاجْتِماع، لكن مَضْمونَ مُؤَلَّفاتِهِ أظهرَ إلْمامًا وَفَهْمًا عَميقًا سِماتِ المُجْتَمَعاتِ وَخَصائِصَها، وَتَطَوّرَها الفِكْريّ وَالذِهْنِيّ عَبْرَ التاريخ فبلغ عِلْمَ الأنتروبولوجيا. ولأنه ضَليعٌ بالشأنِ الاجتِماعِيِّ وعلم الفلسفة أضاف بُعْدًا عِلْميًّا مُساعِدًا على نِتاجِه في مُقارَبَةِ المَواضيعِ الاجتماعِيَّة. سوى أنه احْتاطَ مِنْ طُغْيانِ هذه العُلومِ على مَهَمَّتِهِ التَأْريخِيَّةِ فدعا أَصْحابَ الإخْتِصاصِ إلى التَصَدّي لها، فلم يَغُصْ عليها حتى تَتَقَدَّمَ الطَبيعَةُ التاريخيَّةُ لِمُؤَلَّفاتِهِ الإجْتِماعِيَّةِ على مَفْعولِ العُلومِ الموصِلَة، مَهْما بَلَغَتْ أَهميَّتُها.

المَكانَةُ العِلْمِيَّةُ وَالثَقافِيَّةُ وَالأَدَبِيَّةُ التي تَمَتَّعَ بها فريحة، تقود إلى إشْكالِيَّةٍ بَحْثِيَّةٍ معقّدة، جعلت مُؤَلَّفاتِهِ شائِكَة، خُصوصًا عند تَقْييمِ العُلومِ الموصِلَةِ لَدَيْهِ، لأن فيها مِنَ التَنَوُّعِ وَالخُصوبَةِ ما يَغمرِ القارئ. ومن سعة عُلومِهِ بدّل الأَوْلَوِيّاتِ في أبْحاثِهِ فانْطَلَقَ مِنْ قاعِدَةِ عِلْمِ الاجتماع، لِيَجْعَلَ مِنْ باقي العُلومِ الموصِلَة (في مُقَدَّمِها عِلْمُ التاريخ والأنتروبولوجيا والميثولوجيا وَسِواها) تتناغم معها. من هنا أن اختياره صفة المُؤَرِّخ، والتَصْنيفَ الذي اعْتَمَدَهُ وارْتَضاهُ، قَدْ انْتَشَرَ وَاسْتَقَرَّ على مُعْظَمِ مُؤَلَّفاتِهِ الفولكلوريَّة، كما هو قال[16].

٤. نَشأة القرية اللبنانيّة وواقع الحياة الاجتماعيّة

يرى بعضُ المُؤَرِّخينَ أنَّ تكوينَ الأُمَّةِ لا يَخْضَعُ لِعامِلَيِّ اللُّغَةِ والعِرقِ فحسب بل لِعوامِلَ أُخرى كالفولكلور والعاداتِ والتقاليد. لم تختلفْ مُرْتَكَزاتُ المُجتمع اللبنانيِّ عن هذا الواقع، ولم تَشُذَّ عنه، فالمَسْحُ التاريخيُّ للذاكرةِ المُجتمعيَّةِ في لبنان، يشير إلى هذهِ الذاكرة القديمة. من هنا أن تتبُّعَ ما

١٥) أنيس فريحة، **حضارة في طريق الزوال «القرية اللبنانية»**، ص. ١٦.

١٦) **المصدر نفسه**، ص. ٩.

قامَ به أنيس فريحة من تقميش وتوثيق ودراسةٍ للعاداتِ والتقاليدِ السائدةِ في لبنان يَدْفَعُنا إلى فَهْمٍ أعْمَقَ للشَخْصيَّةِ اللُّبنانيّةِ المُتجذِّرَة التَكْوينِ في التاريخِ القديم.

كان لاخْتِيارِ القريَةِ اللُّبْنانِيَّةِ كَإطارٍ جُغْرافِيٍّ واجْتِماعِيٍّ في مُقارَبَةِ العاداتِ والتقاليد، رديفٌ حَتْمِيٌّ تَمَثَّلَ في مَصادِرَ رَكَنَ إليها فريحة، فاحتلّت نظرَتُهُ إلى تاريخ القريةِ اللُّبنانيَّةِ أهميَّةً اسْتِثْنائيَّةً تَرَتَّبَتْ عليها طبيعَةُ الاسْتِنْتاجاتِ والخُلاصاتِ المُتَّصِلَةِ بالتُراثِ الشَعْبِيِّ اللُّبنانِيّ. فهو اتَّخَذَ مِنَ الخَصائِصِ والسِماتِ في النَسيجِ الإجْتِماعِيِّ المُتنوّع، مُعينًا يُشْبِهُ في تَنَوُّعِهِ الأُصولَ التي اعْتَمَدَها. وهذا ما يُمْكِنُ اسْتِنْتاجُهُ مِنْ تَعَدُّدِ المَصادِر، وَتَفاوُتِ المَكانَةِ التي حازَتْها، إزاءَ المَسائِلِ التي تَصَدّى فريحة في القريةِ اللُبنانِيَّة. فهو كشف عن السِياقِ التاريخِيِّ لِتَكْوينِ القرية اللبنانيّة، وأقصى مُعْظَمَ المَصادِرِ التاريخِيَّةِ الأَثَرِيَّة، لِعَدَمِ تَوَفُّرِها بِشَكْلٍ كافٍ كَمًّا وَنَوْعًا في هذا المَيْدان، لكنه لم يستَغْنِ عَنْها تَمامًا[17]. وَيَتَّضِحُ ذلك في المَواقِعِ الأَثَرِيَّةِ التي أشارَ إليها في جَبَلِ لُبنان، ساقَها في مَقالاتِهِ المُخَصَّصَةِ للأَساطيرِ والملاحِم، داعمًا إياها بما تَمَخَّضَ عَنْها من استِنْتاجاتٍ في بابِ الفِكْرِ الدينِيِّ القَديم، بَعيدًا عَنْ أَبْحاثِهِ التي تَناوَلَتِ العاداتِ وَالتَقاليدَ اللُّبْنانِيَّةَ في التاريخِ الحديثِ والمُعاصِر. لذا لَمْ تُبارِحِ المَواقِعُ الأَثَرِيَّةُ هامِشَها الضَيِّقَ في ما خَصَّ القَرْيَةَ اللُّبْنانِيَّة، وَإنْ تَقاطَعَتْ مَعْ مَثيلاتِها في الدِراساتِ الأُخرى.

لم يَسْتَبْعِدْ فريحة القَواعِدَ المُتَّبَعَةَ في الأنتروبولوجيا وعِلْمِ الإجْتِماعِ والسيكولوجيا وسِواها مِنَ العُلومِ الإنْسانِيَّة (وعادةً يجب اعتمادها لِتَحْديدِ وَوَصْفِ خَصائِصِ وَسِماتِ المَجْموعاتِ البَشَرِيَّة أيْنَما حَلَّتْ في المكانِ والزمان). عَرَضَ لَها بإيجاز مرفقٍ بأسْبابٍ موجبَةٍ بَرَّرَتْ اجْتِنابَهُ بَعْضَ هذه العناصِر. فالقِياسُ على قاعِدَةِ الكَمِّ والنَوْعِ لا يَسْتَقيمُ اعْتِمادُهُ بِشَكْلٍ مُطْلَقٍ على النموذَجِ القَرَوِيِّ كما على مُجْمَلِ شَرائِحِ المُجْتَمَعِ اللُّبْنانِيّ.

ففي الوَصْفِ الجُغْرافِيِّ كما فصّله فريحة بَدَتِ القريةُ اللُّبْنانِيَّةُ بَديلاً واقِعِيًّا مُلائِمًا لِسَدِّ الفَراغِ الناشِئِ عَنِ النَقْصِ في المُعْطى الأَثَرِيّ. ولِأنَّ اسم القرية يُعَبِّرُ عن وظيفَةٍ مُحدَّدَة، أضافَه فريحة عاملاً مركزيًّا لِنَشْأَةِ القُرى. لذا، خَصَّصَ كتابَه **أسماء المدن والقرى وتفسير معانيها** لِتبيانِ وَظيفَةِ كُلٍّ مِنْها انْطِلاقًا مِنْ تَسْمِيَتِها[18].

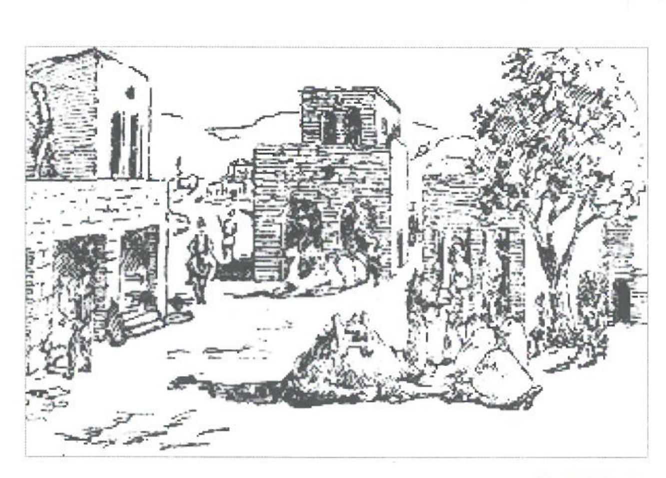
١٧) **المصدر نفسه**، ص. ٣٧.

١٨) أنيس فريحة، **اسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها**، مطابع الكريم، جونية، ١٩٦٥.

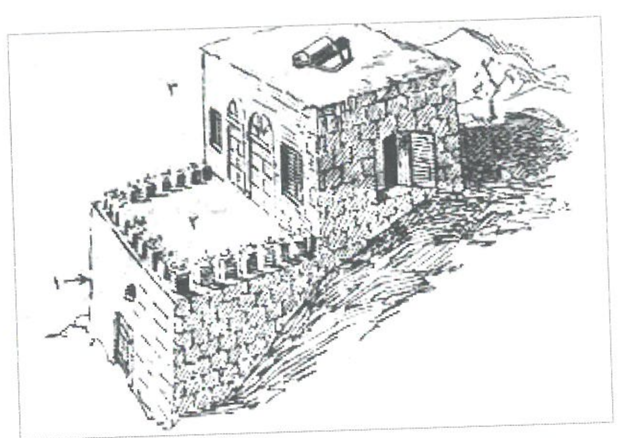
بِناءً على الأسبابِ والقَواعِدِ أعلاه، اتكل على ذاكرته فَلَخَّصَ أبْرَزَ المَواقِعِ في القريَةِ اللُّبْنانِيّة الشاهِدَةِ على الحياةِ الجَماعِيَّةِ والاجْتِماعِيَّةِ لِلْسُكّانَ، في كتابه **القرية اللبنانيّة حضارة في طريق الزوال**. وَلَعَلَّ ساحَةَ الضَيْعَة ما زالتْ مَكانًا ثابِتًا لالْتِقاءِ السُكّانِ حتّى يَوْمِنا هذا، مُقارَنَةً بِأماكِنَ أُخرى **كالمشاع والتَنّور والطاحون**، لكنها آخِذَةٌ بِالأُفولِ أو أصْبَحَتْ جُزْءًا مِنَ الماضي، أو طَيَّ النِسْيان.

رَسَمَ فريحة خارِطَةً تَحْتَوي على شَبَكَةٍ مِنَ المَواقِع مُتَرامِيَةِ الأطْرافِ مُتَرابِطَةٍ في الشَكْلِ والجَوْهَر. وجاء وَصْفُه أصْدَقَ تَعْبيرًا عَبْرَ تَحْديدِ الحاجاتِ والضَروراتِ الحَيَوِيَّةِ لِسُكّانِ القَرية. **فساحَةُ الضَيْعَةِ والعليّة والمَعْصَرَة والحُقول والأتون والعين والمشحَرَة**، جميعُها مَواقِعُ لِلْتَفاعُلِ الاجْتِماعِيِّ والإقْتِصادِيّ، وَمَصْدَرٌ لِدَيْمومَةِ الحَياةِ في القريةِ اللُّبْنانِيّة.

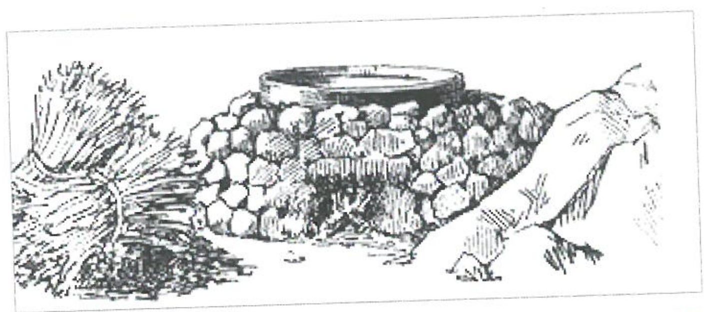
انْتِقاءُ الرُقْعَةِ الجُغْرافِيَّةِ لإنْشاءِ القُرى في سَبيلِ الاسْتيطانِ لم يَكُنْ مصادفةً بَلْ بِناءً على مَعاييرَ تَتَّصِلُ بِمَصْدَرِ القوت، كتَوَفُّرِ الشروط البيئيّة، وجودَةِ التُرْبَةِ والماء، والوِقايَةِ مِنَ الرياح. وَتَنْسَحِبُ أيْضًا على شُروطِ للسلامَةَ اتّبعها الهاربون مِنْ الاضْطِهادِ الدينِيِّ والسياسِيِّ والعرْقِيّ، إذْ يُفْتَرَضُ بِمَوْقِعِ القرية أنْ يؤَمِّنَ المُسْتَلْزَماتِ الدِفاعِيَّة لِمُواجهة عُدْوانٍ مُحْتَمَل، كضرورة القرب مِنَ شَبَكَةِ الطُرُقِ الرَئيسِيَّة. هكذا كَشَفَ فريحة عَنْ سِماتٍ وَخَصائِصَ إبّانَ عَرْضِهِ مَواقِعَ القُرى اللُبْنانِيّة وبُنيانها، مُمَهِّدًا لِلْغَوْصِ في تَفاصيلِ عاداتِها وَتقاليدِها.



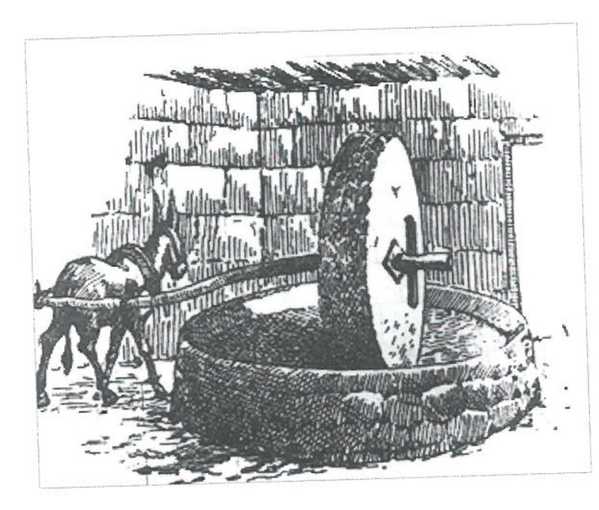
ساحة الضيعة



بيت لبناني: ١ القبو أو المراح أو المدّ – ٢ السطيحة – ٣ العليّة

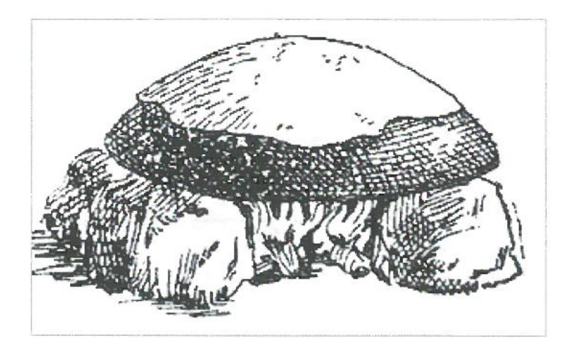


خلقين معصرة دبس في الكروم

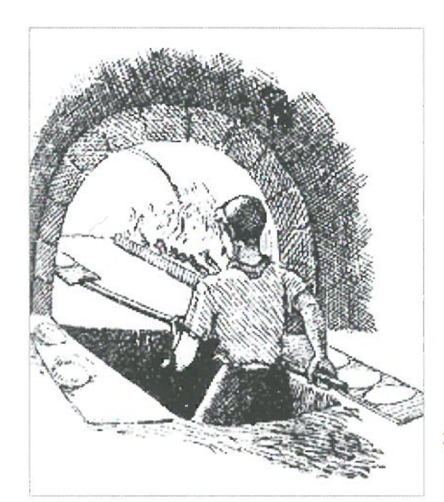


معصرة للزيت ولدبس الخرّوب والزبيب:
١ المدرس – ٢ الزغل





صاج على موقد، وعلى الصاج رغيف



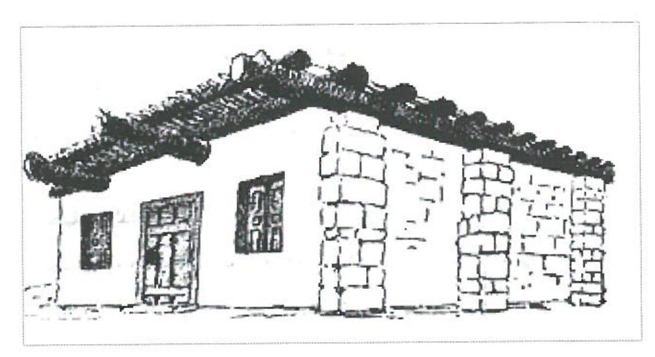
فرّان الضيعة



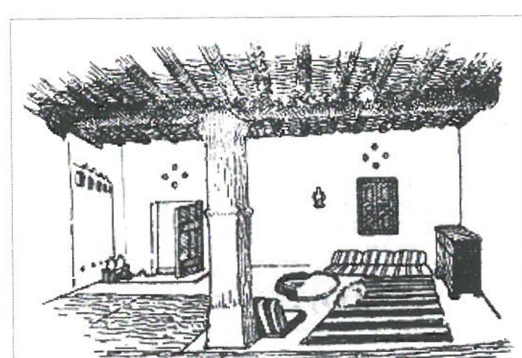
يوك (ليوك) للفرشات



امرأة تخبز في تنور
وفيه تظهر جورة التنور
وعلى جداره رغيف



سفارات العلية، وهي الجزء الناتئ من السطح



عليّة كما تظهر
من الداخل



يَخْتَلِفُ واقِعُ القُرى اللُّبْنانِيَّةِ لِجِهَةِ مُتَطَلِّبات التأْريخ الاجتِماعِيّ، ما حَتَّمَ البَحْثَ عَنْ مَنْهَجِيَّةٍ تَأْريخِيَّة تأخُذُ في الاعْتِبارِ خُصوصِيَّةَ المُجْتَمَع اللُّبْنانِيِّ وَطابَعَهُ الفَريد، ارْتآها فريحة كَفيلَةً بِاسْتِخْراجِ حَقائِقَ تاريخِيَّة، ضامًّا العَناصِرَ أعلاه إلى مَصادِرَ للتأْريخ تضم مَصادِرَ مُتَنَوِّعَةٍ وَكَثيفَة، في مُقَدَّمِها حَقائِقُ مُسْتَقاةٌ مِنْ أرْضِ الواقِع، إذ عاصَرَ فريحة حياةَ القرية واسْتَمَعَ إلى قاطِنيها، فَزَوَّدوهُ بِما خَبِروه وما انْتَقَلَ إلَيْهِم عَبْرَ التَواتُرِ مِنْ جيلٍ إلى جيل.

آثَرَ فريحة تَجاوُزَ المَظاهِرِ الاجتماعِيَّةِ في أبْحاثِه، عند كُلِّ مُناسَبَةٍ يَفْرَغُ مِنْ إيفائها حَقَّها دَرْسًا وَتَحَقُّقًا، حتى يبلغ وجْدانَ الفِكْرِ الجَماعِيّ. فَنَمَطُ الحَياةِ القَرَوِيَّةِ والذِهْنِيَّةُ الجَماعِيَّةُ والسُلوكُ العام، تُعَبِّر عَنْ روح تَتَحَكَّمُ بِمَسارِ المجْموعَةِ البَشَرِيّةِ وَحراكِها لِتَتَجَسَّدَ وَتَتَجلّى بِعاداتٍ وَتَقاليدَ وَأعْراف.

٥. المدرسة التاريخيّة

اجْتازَتِ المَدارِسُ التاريخِيَّةُ مَخاضًا عَسيرًا قَبْلَ أنْ تَتَّخِذَ شَكْلَها الثابِت وَالمَعْروف. وحتّى نهاية القرون الوسطى ارْتَكَزَ التأْريخُ على الإيمانِ الدينِيِّ والدَوْرِ الإلَهِيِّ في مسارِ وَمَصيرِ الشُعوب، إضافةً إلى المِيثولوجيا التي كعِلْم التاريخ لم تَكُنْ بعدُ عِلْمًا قائمًا بذاتِهِ. وَلَمّا اجْتازَتْ قَواعِدُ التأْريخ مَراحِلَ عِدَّة، تَرَكَتْ كُلٌّ مِنْ مَحَطّاتِها بَصَماتٍ في عَمَلِيَّةِ النُمُوّ، في العودَةِ إلى التاريخ الكلاسيكيِّ في عَصْرِ النَهْضَة، أوْ في تركيزِ قَواعِدِ التَبَحُّرِ في علومِ التاريخ إبان القَرْن السابع عشر الذي شَهِدَ أيْضًا على تَطَوُّرٍ نَوْعِيّ.

في أواخِرِ القَرْنِ التاسع عشر وَمَطْلَعِ القَرْنِ العِشْرين باتَ التاريخُ عِلْمًا متكامِلَ العَناصِر، لاسيّما مع **المَدْرَسَةِ الوَضْعِيَّة** وُصولاً إلى **المَدارِس الحَوْلِيَّة**، وهي انْتَشَرَتْ تِباعًا في أنْحاءِ أوروبا بِصورَةٍ وَنِسَبٍ مُتَفاوِتَة، بينها المدرسَةُ الحَوْلِيَّةِ الإنْكليزيَّة التي انْتَمى إليها فريحة الذي يتبين من مؤلفاته حُضورُها في فِكْرِه وَعُلومِهِ وَثَقافَتِه وَتَأَثُّرُهُ بِتَطَوُّرِها.

العَلامَةُ الفارِقَة أفْرَزَتْها ثُنائِيَّةُ **مَدْرَسَةِ الحَوْلِيّات**، باكورَةُ التَأْريخ الإجْتِماعِيِّ بِمَعْناها العِلْمِيِّ المَنْهَجِيِّ مِنْ جِهَة، والاكتشافاتُ الأثرِيَّةُ في مَطْلَعِ القَرْنِ العِشْرين مِنْ جِهَةٍ أخرى، لِتُشَكِّلَ المادّةَ الاساسِيَّةَ لِكِتابَةِ التاريخِ القديم. وانخرط فريحة في دِراسَةِ المادَّةِ الأَثَرِيَّةِ والميثولوجيا الساميّة، ولا ذِكْر لكونه اطَّلَعَ على مَدْرَسَةِ **الحَوْلِيّات**. لكن مُؤَلَّفاتِه في العاداتِ وَالتَقاليد تُثْبِتُ انْحِيازَهُ إلى التاريخِ الاجتِماعِيّ بانتمائه إلى مدرسَةِ الحَوْلِيّاتِ الإنْكليزِيَّة.

تَناوَلَ فريحة الحقبَةَ القَديمَةَ بِصورَةٍ مُرَكَّزَة لاسْتِجْلاءِ تاريخِ الحَضارات التي يَخْتَلِطُ فيها المُعْطى الدِينِيُّ مع الاجتماعيّ، والاقتصادي مَع السِياسَة. ويُؤَكِّدُ تَعَمُّقَ فريحة في عِلْم التاريخ تَلَقّيهِ وَتَدْريسُهُ هَذِهِ المادَّة في أكْثَر مِنْ صَرْحٍ أكاديمِيٍّ في لُبْنانَ وخارِجَه، ولاسيّما في الجامِعَةِ الأميركِيَّةِ في بيروت وجامِعَةِ شيكاغو. لَمْ تُظْهِرْ كِتاباتُ فريحة تَقَيُّدًا مُفْرِطًا بِقَواعِدِ المَدْرَسَةِ الوَضْعِيَّةِ لِجِهَةِ حَصْرِ المَصادِرِ التاريخِيَّةِ بِالوَثائِق (كما التزم بها أسد رستم). لكنه احْتَرَمَ اعْتِمادَ الوثائِقِ المَكْتوبَةِ والإسْناد وشَقَّ طَريقَهُ الخاص إلى الميثولوجيا والأنتروبولوجيا والألْسُنِيَّة وَسِواها مِنَ العُلومِ الموصِلَة، وَرَكَنَ إليها في مُؤَلَّفاتِهِ التاريخِيَّةِ الاجْتِماعِيَّة.

لَمْ يَتَناوَلِ المَدارِسَ التاريخِيَّةَ جُمْلَةً وَلا تَفْصيلا، ولَمْ يَتَّخِذْ مَوْقِفًا داعِمًا أوْ مُنْحازًا لِأيٍّ مِنْها. لكن المُطَّلِعينَ على مَلامِحِ نِتاجِه الرَئيسة يستنتجون اقْتِرابه مِنْ نَهْجِ مَدْرَسَةِ التَأْريخ الاجْتِماعِيِّ في مُؤَلَّفاتِهِ المُتَّصِلَةِ بالعاداتِ وَالتَقاليد، بدون أن يعني ذلك إغْفاله الوَثائِق الوَسيطَة والحَديثَة، أوْ إهْماله أحْداثًا وَوَقائِعَ تاريخِيَّةً في هامِشِ مُؤَلَّفاتِه. فهو قارب مَواضيعَ دينِيَّةً واجْتِماعِيَّةً غَلَبَ عَلَيْها الطابَعَ التَثْقيفِيّ، عدا قِلَّةٍ مِنْها انْتَمى إلى التاريخ الحَدَثِيّ كمَقالَتِهِ **مجمع نيقيا المسكونيّ** (من كِتابِهِ **دراسات في التاريخ**) وفيها عالَجَ إشْكالِيَّةً كَنَسِيَّةً مَسيحِيّةً دينِيَّةً وَلاهوتِيَّة، تَضَمّنَتْ شُروحًا مُخْتَّصَةً بِالزَمانِ وَالمَكان، وَبِتَفاصيلَ ذاتِ طابَعٍ حَدَثِيّ[١٩].

لم يَمِل فريحة إلى رَكائِز إيدْيولوجِيَّة قامَتْ عَلَيْها المَدارِسُ السابِقَةُ مَدْرَسَةَ **الحَوْلِيّاتِ** الإنْكليزِيّة، كَالمُنْطَلَقاتِ الدينِيَّةِ أو الاقْتِصادِيَّةِ أو الشُعوبِيَّة. لَمْ يَنْطَلِقْ في تَأْريخِهِ مِنْ أحْكام مُسْبَقَة، لَوْ حَصَلَتْ لقيّدته في حَرَكَةِ اسْتِكْشافِ تاريخِ الشُعوبِ وَالحَضارات، ولانتهى إلى نَتائِج تَخْضَعُ لِأهْوائِهِ وَمُعْتَقَداتِه لا إلى حَقائِقَ مَوْضوعِيَّةٍ وَمَنْطِقِيَّة. مع ذلك لم يخْلُ نِتاجه مِنْ خَلْفِيَّاتٍ تاريخِيَّةٍ مؤثّرة في سياق العاداتِ وَالتَقاليد، وَما انْبَثَقَ عَنْها من خلاصات تارِيخِيَّة، منها انتماؤه إلى **جماعةِ الفِرِنْدْز البروتِسْتانتيّة**.

اعْتَمَدَ فريحة التأْريخَ الطويلَ المُسْتَمِرَّ بعيدًا عن التاريخ الحَدَثِيّ، بَعْدَما أضحى مدرسةً تاريخيّةً مستقلة. وهو أسلوب نجده لدى مُؤَرِّخينَ لُبْنانِيّينَ مُعاصِرين فريحة مثل **جواد بولس ونقولا زيادة وفيليب حتّي**، أكَّدوا على الثَوابِتِ الطبيعيَّةِ التارِيخِيَّة وعلى علاقةِ التاريخ بِالجُغْرَافِيا في مَفْهومِها المَنْهَجِيِّ العُضْوِيّ. هؤلاء المُؤَرِّخون ينتمونَ مثلَ فريحة إلى مَدْرَسَةِ الحَوْلِيَّاتِ الإنْكليزِيَّة. وهذا النوع من التأْريخِ المُسْتَنِدِ إلى الجُغْرَافيَا

١٩) أنيس فريحة، **دراسات في التاريخ**، دار النهار للنشر، ١٩٨٠.

شَكَّلَ صدًى لمَدارِس غَرْبِيَّةٍ فترتئذٍ تَلَتْ أوْ رافَقَتْ **مدرسة الحَوْلِيّات**، مِنْها المَدْرَسَة الجُغْرافيّة الفيداليّة (نِسْبَةً إلى **بول فيدال دو لابلاش**)، ويظهر هذا النَوْع من التأريخ في المَدْرَسَةِ التاريخِيَّةِ (ركّزها **فرناند بروديل**[٢٠]).

انفتح فريحة على المُعْطى الجُغْرافِيِّ متأثّرًا بِالعُنْصُرِ الإنْسانِيّ وتصدى لإشْكالِيَّاتٍ اجتِماعِيَّةٍ مُعاصِرَةٍ لامَسَ بَعْضُها مَسائِلَ سِياسِيَّةً واقْتِصادِيَّة دون بلوغ الدِراساتِ الجيوسِياسِيَّة فلَمْ يربط المُعْطى الجُغْرافِيِّ بالعُنْصُرِ البَشَرِيِّ وصولاً إلى خُلاصاتٍ تَتَّصِلُ بالنظامِ السِياسِيّ أوْ تستشرف مَصالِحَ قَوْمِيَّة.

٦. الفكر الديني في مؤلّفاته

انْطِلاقًا مِن انْتِماءِ فريحة إلى مَدْرَسَةِ الحَوْلِيّاتِ **الأنكلوسكسونيّة**، وَقُرْبِهِ مِنَ التاريخِ الاجتِماعِيّ، وَلِأنَّ أوْلَوِيّاتِهِ البَحْثِيَّةَ تَرَكَّزَتْ على جُذورِ العاداتِ وَالتَقاليدِ التاريخِية القديمة، جاءَتْ مَنْهَجِيَّتُهُ تَرْجَمَةً لِهَذا الخَيار: قارَبَ الطُقوسَ وَالمُمارَساتِ الدينِيَّةَ الاجْتِماعِيَّةَ في لُبْنان، كَتَجْسيدٍ لِعاداتٍ وَتَقاليد، يَخْرُجُ العَديدُ مِنْها عَنِ القَواعِدِ وَالتَعاليم الدينِيَّةِ المُنْتَظِمَةِ في الكَنيسَة. وَلَمَّا اسْتَدْعَتْ مُلاحَقَتُها بَحْثًا تاريخِيًّا عَميقًا تَبَيَّنَتْ أصْداؤُها في الحَضاراتِ القَديمَة، مُتَّشِحَةً بِفِكْرٍ دينِيٍّ مُتَلازِم مع الذِهْنِيَّةِ الاجْتِماعِيَّةِ السائِدَةِ عهدذاك. لِذا اعْتَمَدَ في تَأْريخِهِ الطَّويل مَحَطّاتٍ شِبْهَ ثابِتَة، أبرزها اثنتان: واقِع القَرْيَةِ اللُبْنانِيَّة، وعُمْق الحَقَباتِ القَديمَة.

تجلى تَنَوُّعُ الحَضاراتِ في مؤلفات فريحة، وهو شرح وِحْدَة المَضْمون كما شاءَ إثْباتَه: شَدَّدَ على شَرْحِ الفِكْرِ الدينِيِّ القَديم بِاعْتِبارِهِ المُنْطَلَقَ الأساسَ لمعظم ممارساتٍ وظَواهِرٍ تعبّر عَنِ التَساؤلاتِ المَصيرِيَّةِ الانسانِيَّة الطالعة من طَبيعَةِ المُجْتَمَعاتِ الزراعِيَّة، كما مثلاً في عرضه **أعْيادَ الرَبيع** في لُبْنانَ القَديم، يتصدّر بُطولَتَها الإلَهُ/البطل **أدونيس**، مجسّدًا فِكْرَةَ إله يَموتُ لِيَقومَ في اليَوْمِ الثالِث، ويَبْعَثَ الحَياةَ في الطَبيعَةِ مِنْ جَديد.

وَتَتَكَرَّرُ دَوَّامَةُ طُقوسِها وَمُمارَساتِها سنويًّا على شاكِلَةِ الأشْهُرِ وَالفُصول يَشْتَرِكُ فيها إلى **أدونيس** الفينيقِيّ، **تَموز** لدى البابِلِيِّين **وَأنيني** لدى السومَرِيِّين، إلى أنْ يُسْتَكْمَلَ التطْوافُ على عُمومِ الشُعوبِ وَالحَضاراتِ

٢٠) حول المدارس التأْريخيّة وتطورها:
Hervé INGLEBERT, *Le Monde, l'Histoire. Essai sur les histoires universelles*, PUF, Paris, 2014.

الزراعِيَّة مَهْما اخْتَلَفَت الأسْماءُ أوْ تَبَدَّلَتْ أشْكالُ التَعْبيرِ التَفْصيلِيَّة. وَيخلص فريحة إلى أنَّ فِكْرَةَ مَوْتِ الإلَهِ وَانْبِعاثِه لاقَتْ قبولاً لَدى شُعوبِ العالَم القَديم كافَّة، مَعْ تَسْجيلِ أسْبَقِيَّةٍ لِشُعوبِ الشَرْقِ الأدْنى[٢١]. من هنا استنتج أنَّ **أُسْطورَةَ أدونيس** تَقَمَّصَتْ لاحقًا في شَخْصِيَّةِ أوْلياءِ وَقِدّيسين ما زالَ اللُبْنانِيّونَ يُقَدِّمونَ لَهُم قُرْبانًا وَبَخّورًا، كما في العاداتِ وَالتَقاليدِ الدينِيَّةِ اللُبْنانِيَّةِ المُعاصِرَة. وطالَ أَثَرُ أدونيس التَقْليدَ العَرَبِيَّ الإسْلامِيّ فاختَلَطَتْ قِصَّتُهُ بِسيرَةِ **الخُضر أوْ جِرْجس** الذي يُقَدِّسُهُ المُسْلِمونَ وَالمَسيحِيُّونَ معًا. وعالَجَ فريحة مَواضيعَ فِكْرِيَّةً دينِيَّةً أُخْرى بِالمَنْهَجِيَّةِ ذاتِها، مثل **الميلاد في أمْسِهِ البَعيد**، لِكَوْنِها تَتَقَدَّمُ مَع **الفصْح** سائِرَ إشْكالِيَّاتٍ أثارَها فريحة على هذا المُسْتوى[٢٢].

تَقاطَعَتْ عُروضُ فريحة مع المُمارَساتِ الدينِيّةِ وَالاجْتِماعِيَّةِ في الغَرْبِ الأوروبِيّ، لِتُشَكِّلَ مَعْ مَثيلاتِها اللُبْنانِيَّةِ مَشْهَدِيَّةً عَريضَةً مُوَحَّدَة في الشَكْلِ وَالمَضْمون، أرْدَفَها بِسِياقٍ تاريخِيٍّ لِحَضاراتِ أوروبِيَّة تَوَلَّدَتْ مِنْها مُمارَساتٌ وَعاداتٌ وَطُقوسٌ عايَنَها فريحة، عَبَرَتْ مِنَ الماضي السَحيق لتكون أعْيادًا وَثَنِيَّةً في القُرونِ المَسيحِيَّةِ الأولى التي شَهِدَتْ اشْتِباكًا بَيْنَ المُعْتَقَدِ المَسيحِيِّ وَمُعْتَقَداتٍ شَبيهَةٍ بِه، كالدِيانَةِ **الميثْراوِيَّة** التي شَكَّلَتْ خَطَرًا على الكَنيسَة. وَبِرغْمِ تَفَوُّقِ الكَنيسَةِ عَلَيْها تواصلت جَوانِبُ مُخْتَلِفَةٌ مِنْها حتى القُرونِ الوُسْطى فالتاريخ المُعاصِر.

عَرْضُ فريحة الطُقوسَ وَالمُمارَساتِ في الغَرْبِ الأوروبِيّ اكْتَسَبَ وُضوحًا بتَسَلْسُلِهِ التاريخِيِّ المَنْطِقِيّ وبتناوُله المَوْضوعاتِ في الحَقَباتِ التاريخِيَّةِ الثَلاث، ولا يَبْدو الأمْرُ كَذَلِك مع مَثيلاتِها اللُبْنانِيّة لافْتِقادِ السِياقِ التاريخِيِّ إلى مُعْطَيات الحَقَبَةِ الوَسيطة.

اتصالُ فريحة المُباشَرَ بِالتاريخِ القَديم يثير مسألة صَوابِيَّةِ القَفْزِ عَنْ نَشاطٍ بَشَرِيٍّ لحقبة زمنية طويلة تَنْطَوي على تَبَدُّلاتٍ في الذهنيَّةِ الاجتماعيَّةِ والدينيَّة. وَلَعَلَّ الثَغَراتِ والفَجَواتِ التاريخِيَّةَ التي نَبَّهَ إلَيْها هي التي دَفَعَتْهُ إلى اتِّباعِ هَذِهِ المَنْهَجِيَّة مُحاولاً رَدْمَ الهُوَّةِ بِما أُتيحَ لَهُ مِنْ إمْكاناتٍ وَعُلومٍ موصِلَة، فَضْلاً عَنْ مَهارَتِهِ التَأْريخِيَّة.

٢١) المصدر نفسه.

٢٢) المصدر نفسه.

٧. العادات والتقاليد العربيّة

المَسائِلُ المُتَّصِلَةُ بِالعالَم العَرَبِيِّ حَلَّت على هامِشِ مؤَلَّفاتِ فريحة فتَطَرَّقَ إليها لمامًا عند تَأْرَيخِهِ حَضاراتٍ في مَنْطَقَةِ الشَرْقِ الأَوْسَط تقاطعت معها في أكْثَرَ مِنْ مُناسَبَة. لَمْ يَشَأْ أنْ يُنْجِزَ نِتاجَهُ في خَصائِصِ وَسِماتِ الشُعوبِ السامِيَّةِ بدون تِلْكَ العَرَبِيَّةِ مِنْها. وَعلى مَساحَةِ الحَقَباتِ التاريخِيَّة قاربها مِنْ بابِ الشُمولِيَّةِ وَالتَكامُلِ الحَضارِيّ الذي كلَّلَ عَمَلَه البَحْثِيّ، ضمْنَ مُعالَجَتِهِ الأَلْفاظ العامِيَّة وَلَهْجاتٍ عَرَبِيَّةً انْبَثَقَتْ مِنْها اللُغاتُ السامِيَّةُ المُخْتَلِفَة، على حَدِّ تَعْبيره[٢٣].

أوغل في تاريخ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ البَدَوِيَّةِ قَبْلَ انْتِشارِها في «**الهِلال الخَصيب**»، لكنه لَمْ يُقارِب العاداتِ وَالتَقاليدَ العَرَبِيَّةَ بِصورَةٍ شامِلَة وَلَمْ يخصص لها كتابًا كما خصص لتِلْكَ اللُبْنانِيَّة. اسْتَحْوَذَ على اهْتِمامِه البُنْيانُ السِياسِيُّ لِلْدُوَلِ العَرَبِيَّة وَما يَشوبُهُ مِنْ تَخَلُّفٍ على خَلْفِيَّةِ الفِكْرِ العَرَبِيِّ الذي يُعاني مِنْ مُشْكِلاتٍ ثَقافِيَّةٍ واجْتِماعِيَّة. اندفع صوب المَسائِلِ السِياسِيَّةِ العَرَبِيَّةِ المُعاصِرَة مبتعدًا عن الشَأْنِ الاجْتِماعِيّ، لِتَتَبَيَّنَ في مَضْمونِ البَحْثِ وَقائِعُ وَمَقاصِدُ اجْتِماعِيَّةٌ سِياسِيَّة تُثْبِتُ مَضامينُها عَكْسَ ذَلِك. وفي بحثَيه **الفكر العربيّ وَمُشكلاته**، **والديمقراطيّة لدى العرب**، استخرج أسْبابًا ودَوافِعَ أدَّت إلى واقِعِ الحالِ المُعاش، على قاعِدَةِ تَحْديدِ العاداتِ والتَقاليدِ وَالأعْرافِ العَرَبِيَّة في صَميم الذِهْنِيَّةِ الاجْتِماعِيَّةِ مُنْذُ قُرونٍ عِدَّة، وَلا تَزالُ تَتَحَكَّمُ بِالسُلوكِ السِياسِيِّ والدينِيِّ والاجْتِماعِيّ[٢٤]. وهو حافَظَ على مَنْهَجِيَّتِهِ في التَأْريخ الطَويل مُجريًا مُقارَنَةً لِلْعاداتِ وَالتَقاليدِ العَرَبِيَّة بإظْهارِ مَسارٍ سَلَكَتْهُ مِنَ التاريخ القَديم وُصولاً إلى عَصْرِه، مَقْرونًا بالأُطُرِ المُعَبِّرَةِ عَنْها، وَما أحاطَ بها مِنْ ظُروفٍ في المَحَطّاتِ التاريخِيَّةِ الثَلاث. لِذا، شَرَحَ المَراحِلَ التي شَهِدَتْ تَحَوُّلاتٍ أساسِيَّة منذ الحُكْم القَبَلِيِّ فالحُكْم المَلَكِيِّ المُطْلَق فالحُكْمِ الإلَهِيِّ فَالإقْطاعيّ، بلوغًا إلى الحُكْم النيابِيِّ الجُمْهوريّ[٢٥].

إنَّ الانطِلاقَ مِنَ تَوْصيفِ الواقِعِ السياسِيِّ المُتَرَدّي في الدُوَلِ العَرَبِيَّة، وَطَرْحَ إشْكالِيَّةِ ما تَوَصَّلَتْ إلَيْهِ شُعوبُها على مَسْتَوى مُمارَسَةِ الديمُقْراطِيَّة والمَدى الذي بَلَغَتْهُ ليس بِالأمْرِ العَسير، بِصَرْفِ النَظَرِ عَنِ صَوابِيَّةِ

٢٣) أنيس فريحة، **معجم الألفاظ العامية في اللهجة واللبنانية**.

٢٤) أنيس فريحة، **دراسات في التاريخ**، ص. ٢٥١–٢٦٧.

٢٥) **المصدر نفسه**.

الاسْتِنْتاجاتِ وَالحُلولِ المُقْتَرَحَة، كما يظهر واضحًا في مؤلفاتٍ سِياسِيَّةٍ كَثيفَة أخَذَتْ بِالازْدِيادِ المُطّرِدِ مُنْذُ النصْفِ الثاني مِنَ القَرْنِ العِشْرين وصولاً إلى اليوم. إلاَّ أنَّ العَوْدَةَ إلى أصْلِ المُشْكِلاتِ وَدَوافِعِها، لَعَلَّها إشْكالِيَّةٌ رَديفَة تَفوقُ سابِقَتَها. وَلأنَّها كَذَلِك سخّر لها فريحة إمْكاناتٍ عِلْمِيَّة وَمَنْهَجِيَّة تحيط بِجَوانِبِ البَحْثِ المُتَنَوِّع.

٨. خلاصة عامّة

تَناوَلْتُ في هذا البحث أنيس فريحة المُؤَرِّخ لا المُتَخَصِّص في اللُغاتِ السامِيَّة أو في الميثولوجيا أوْ في عِلْمِ الإجْتِماع. وَلَعَلَّ التَقاطُعَ والتَداخُلَ بيْنَ العاداتِ وَالتَقاليدِ وَبَيْنَ مَسائِلَ وَإشْكالِيّاتٍ أُخْرى في دِراساتِه، أصْعَبُ ما واجهني في قراءتي نتاج فريحة، إذ يستحيل فصلُ فِكْره التاريخِيّ عَنْ ثَقافَتِهِ في العُلوم الأُخْرى، لاسيّما الانسانيّة. فهو لَمْ يَتَقَيَّدْ بقاعِدَةٍ واحِدَةٍ في أُسْلوبِهِ التأْرَيخِيّ بَلْ تحرر مِنْ الضَوابِطِ البَحْثِيَّةِ في أكْثَر مِنْ مَوْضَع. لَكِنَّ السِمَةَ العامَّةَ تُؤَكِّدُ انْتِماءَهُ إلى مَدْرَسَةِ التأْريخ الاجتِماعِيِّ وَإلى مَنْهَجِيَّةِ التَأْريخ الطَويلِ وَالمُسْتَمِرّ. وَلَعَلَّ خُروجَهُ على أطر يعتمدها المُؤَرِّخونَ المُعاصِرون لَمْ يَنْبَعْ مِنْ قُصورٍ أوْ إهْمالٍ بل مِنْ تَسْخيره الأُسْلوب وَالمُعْطَياتِ التاريخِيَّة لِخِدْمَةِ الغاياتِ وَالأَهْدافِ السامِيَةِ المُتَوَخّاةِ مِنْ أبْحاثِه.

ففي أبْحاثِهِ عن العاداتِ وَالتَقاليد مَنْهَجِيَّةٌ ثابِتَة تَجاوَزَتْ في أهَمِيَّتِها جَميعَ العَناصِرِ البَحْثِيَّةِ الأُخْرى وَتَمَثَّلَتْ في الأُفُقِ التاريخِيِّ اللامَحْدود. لذا لَمْ تَعْرِفْ رِحْلَتُهُ على مَرِّ العُصورِ هُدوءًا أوْ اسْتِكانَة، لِكَوْنِها الأداةَ الأفْعَلَ في اسْتِجْلاءِ ما يَلُفُّ الظَواهِرَ وَالمُمارَساتِ الدينِيَّةَ والاجتِماعِيَّة المُلازِمَةَ مُجْتَمَعاتِنا المُعاصِرَة مِنْ غُموضٍ أوْ الْتِباس.

وَمِنْ مَوْقِعِ المُدْرِكِ حَتْمِيَّةَ انْتِماءِ العاداتِ وَالتَقاليدِ إلى جُذورٍ تاريخِيَّةٍ ضارِبَةٍ سحيقة القدم، لاحَقَها فريحة لِيَسْتَهْدي إلى مَوْقِعِها وَمَوْضِعِها بَيْنَ الحَضارات. وَلَمَّا عَثَرَ على زادٍ وافِرٍ مِنْها أجْرى دِراسَةً على بيئاتٍ ومُجْتَمَعاتٍ حَلَّتْ في كَنَفِها، فكشف عن ظُروفِ وأسْبابِ وَدَوافِعِ مُمارَسَتِها آنَذاك مستعينًا بِالمَلاحِمِ وَالأساطيرِ كَعِلْم موصِل. فالميثولوجيا مَيْدان واسع لِدِراسَةِ خَصائِصِ وَسِماتِ الشُعوبِ في الحَضاراتِ القَديمَة، وَالذِهْنِيَّةِ الاجتِماعِيَّة السائِدَةِ فيها، فَضْلاً عَنْ الاختِبارات الإنْسانِيَّةِ مُنْذُ نَشْأتِها وما رافَقَها مِنْ تَبَدُّلٍ وَحراكٍ مُسْتَمِرّ. فالإلمام بِالمَلاحِم والأساطير ممرٌّ إلْزامِيٌّ لِبُلوغِ الحَقائِقِ التاريخِيَّة لِكَوْنِها تُشَكِّلُ إطارًا وُجْدانِيًّا انْدَرَجَتْ فيهِ مَعاني الحَرَكَةِ التاريخِيَّة في الفِكْرِ وَالمُمارَسَة.

غاص فريحة على الحَضاراتِ القَديمَةِ وعاد منها بِعاداتٍ وَتَقاليد عايَنَها في بيئَتِها وَعَصْرِها وواجهها مع جُذورِها مُعْتَمِدًا حَيالَها دِراسَةً مُقارَنة، معالجًا الاخْتِلافَ في المَنْطَقِ وَالذِهْنِيَّةِ في كُلٍّ مِنَ الحقبَتَيْنِ التاريخِيَّتَيْن بِفِعْلِ مُرورِ الزَمَن، فكان إنجازُهُ هَذِهِ المَرْحَلَةَ التَأْسيسِيَّة وَالتَمْهيدِيَّة إيذانًا بِانْطِلاقَةِ مهمَّتِهِ التاريخِيَّة.

لَمْ تَكُنْ الدَرْبُ التي شَقَّها فريحة مُعَبَّدَة. تَطَلَّبَتْ جُهودًا حَثيثَةً وَإِمْكاناتٍ استِثْنائِيَّة لإزالَةِ المُعَوِّقاتِ قَبْلَ أنْ تُصْبِحَ سالِكَةً. لَمْ يَسْلُكْ طَريقًا واحِدًا بَلْ شَبَكَةً معقدة مِنَ الطُرُقِ وَالجُسور بَيْنَ الحَقَباتِ التاريخِيَّةِ الثَلاث وبَيْن الحَضاراتِ المُتَزامِنَةِ في التَوْقيت. صحيح أن العُلوم المُساعِدَة أعانته علميًّا وَرَفَدَتْهُ بِمُعْطَياتٍ وافِيَةٍ لِلْبَحْث لكنه لَمْ يَكْتَفِ بِها بَلْ أضافَ إِلَيْها اخْتِبارَهُ الشَخْصِيَّ بِمُعاصَرَتِهِ القَرْيَة اللُبْنانِيَّة.

قامَتْ دِراسَةُ فريحة على ثُنائِيَّةٍ متماسكة وصَلابَةٍ قوية أدّتا إلى نَجاحِه: العامِلُ الأَوَّلُ بِالوُجْدانِ التاريخِيِّ الاجتِماعِيِّ اللُبْنانِيِّ في حُلَّتِهِ القَرَوِيَّة بما فيه مِنْ عَناصِرَ تُراثِيَّة، وعاداتٍ وَتَقاليدَ وَأَعْراف، والعامِلُ الآخر تَكَوَّنَ بِصورَةٍ تَراكُمِيَّة مُنْذُ الْتِحاقِهِ بِالجامِعَةِ الأميركيّةِ في بَيْروت، مُرورًا بِمَعارِفِ اكْتَسَبَها من رِحْلَتِهِ العِلْمِيَّةِ والتَعْليمِيَّةِ في الغَرْب واطّلاعه على روح الثَقافَةِ الغَرْبِيَّة. وَهو احتفظ بِمَفْهومَيْنِ ثَقافِيّيْنِ مُخْتَلِفَيْن، إنْ لَمْ نَقُلْ مُتَناقِضَيْن.

فِكْرُ فريحة وَثَقافَتُهُ الواسعة أدّيا واجِبًا تاريخِيًّا وَوَطَنِيًّا وَخِدْمَةً للقراء والدارسين على رغم مُبالَغاتٍ أوْ جُرعاتٍ زائِدَةٍ مِنَ الخَلْفِيَّةِ التاريخِيَّةِ، والدينِيَّةِ منها. لَكِنَّ الاسْتِنْتاجَ العامَّ المَبْنِيَّ على مُحَصِّلَةِ أعْمالِه، بِأَسْبابِها وَدَوافِعِها وَغاياتِها، يوضح المَفاهيم الجَوْهَرِيَّة التي أرْساها على المُسْتَوى التاريخِيِّ الاجتِماعِيّ.

تَناوَلَ العاداتِ وَالتَقاليدَ اللُبْنانِيَّةَ مُؤَرِّخونَ وَمُفَكِّرونَ لُبْنانِيّونَ كُثُر ذوو مؤلفات ممتازة تَوْثيقًا وَأسْلوبًا تأْريخِيًّا، لَعَلَّ بَعْضَها فاقَ مُؤَلَّفاتِ فريحة لِناحِيَةِ الكَمِّ والتَنْظيم والتَبْويب والالْتِزام بِالقَواعِدِ المَنْهَجِيّة التاريخيّة. لكن ما تَمَيَّزَ بِهِ فريحة وَطَبَعَ نِتاجَهُ الاجتِماعِيَّ بِطابَع خاصّ، هي روحِيَّتُهُ، التي تَكادُ لا تَخْلو مِنْها مَفاصِل المَسائِلِ الاجتماعِيَّةِ المُتَّصِلَةِ بِالوُجْدانِ الإنْسانِيّ الذي يَطالُ الفِكْرَ الفَرْدِيَّ وَالجَماعِيّ، سِيَّما لدى عُمومِ اللُبْنانِيّين.

عالج فريحة واقِعَ القَرْيَةِ اللُبْنانِيَّة إذ وَجَدَ اللُبْنانِيّين غارِقينَ في عاداتٍ وَتَقاليدَ دينِيَّةٍ واجْتِماعِيَّة يُمارِسونَها مِنْ غَيْرِ وَعْيٍ أوْ إدْراك. وَلاحَظَ أنَّ معظمها مَوْروثاتٌ قَديمَةٌ لا تَمُتُّ إلى الدينِ المَسيحِيِّ وَلا إلى تعاليم الكنيسَةِ بِصِلَة. وساءَهُ أنَّ المُجْتَمَعاتِ المُتَطَوِّرَةَ في الغَرْبِ غادَرَتْ مُرَبَّعَ الإقْطاعِ

وَأدَواتِهِ مُنْذُ عُقودٍ فيما يَتَمَسَّكُ اللُبْنانِيّونَ وَالعَرَبُ بِالماضي المُتَحَكِّم بِمَفاصِلِ حَياتِهِم، وَبِسُلوكِهِم الاجتِماعِيِّ وَالسِياسِيِّ المُتَخَلِّفِ وَالمُتَزَمِّت. وهو توصَّلَ إلى حَقيقَةِ الواقِعِ الاجتِماعِيّ بِفَهْمِهِ العَميقِ طَبيعَةَ النَسيجِ اللُبْنانِيِّ وسِياقِهِ التاريخِيّ. لَمْ ينقَدْ إلى الذينَ تَناوَلوا الشَأنَ السِياسِيَّ أوْ الدينِيَّ أوْ الطائِفِيَّ بِشَكْلٍ مُنْفَصِل، ولا عالج التاريخ الحَدِثِيّ مَهما بَلَغَتْ أهَمِيَّةُ هذا القائِدِ أوْ ذاكَ المَلِك، بَلْ تَجاهَلَ التَحَوُّلاتِ وَالتَبَدُّلاتِ على مُسْتَوى الحُكْم وَانْتِقالِ السُلْطَة لِكَوْنِها لا تُبَدِّلُ في قَواعِدِ العَيْشِ وَأُسُسِه، بَلْ تزيدُ الأمورَ تَعْقيدًا. لذا ليس في مُؤَلَّفاتِهِ أيُّ مَظْهَرٍ مِنْ مَظاهِرِ التاريخِ اللُبْنانِيِّ الحَدَثِيّ، وإذا حَلَّ على هامِشِ مَواضيعَ وَأُطُرٍ جُغْرافِيَّةٍ أُخْرى، فَلِضَرورَةٍ تَفْرِضُها طَبيعَةُ البَحْث. والتِزامًا مِنْهُ بِمَدْرَسَةِ التأْريخ الاجتِماعِيِّ التي تَأثَّرَ بِقَواعِدِها التَأْريخِيَّة أسْقَطَ كُلَّ ما يَتَّصِلُ بِتاريخ الأفْراد واهتمّ بتاريخ الجَماعَة واضعًا فيه دِراساتٍ وَأبْحاثًا تُعْنى بِشؤون الناسِ وَمُشْكِلاتِهِم المُشْتَرَكَة. وَعلى ضَوْءِ قَناعاتِه تَوَجَّهَ إلى حَيْثُ المُعْضِلَةُ العُضْوِيَّةُ الأساسِيَّة، فَوَضَعَ يَدَهُ على العاداتِ وَالتَقاليد وَالأعْراف. لَمْ يُوَثِّق عاداتٍ وَتَقاليدَ لُبْنانِيّة مِنْ مَصْدَرِها الأصْلِيِّ المُتَمَثِّلِ بِشُيوخ وَعَجائِزِ القَرْيَة لِمُجَرَّدِ التَوْثيق، بل هدف إلى إيقاظِ الذاكِرَةِ الجَماعِيَّةِ اللُبْنانِيَّة، مستخدمًا أُسْلوبه بإعادَةِ رَبْطِ كُلِّ ظاهِرَةٍ أوْ مُمارَسَةٍ بِجُذورِها التاريخِيَّة. فهو يُجيدُ القَفْزَ الطَويلَ بَيْنَ الحَقَباتِ التاريخِيَّة ويحترف اخْتِصارِ المَسافاتِ، ما مَكَّنَهُ مِنَ الحِفاظِ على تَوازُنِهِ البَحْثِيّ، وجَنَّبَهُ الانزلاقَ والتَعَثُّر. وَلِكي يَضَعَ القارِئَ أمامَ الحَقائِقِ التاريخِيَّة عَرَضَ عاداتٍ وَتَقاليد وَما يُقابِلُها مِنْ مُمارَساتٍ وَطُقوسٍ في الحَضاراتِ القَديمَة. فَمُمارَسَةُ السِحْرِ والشَعْوَذَةِ واسْتِشْرافُ المُسْتَقْبَلِ ذات أُصولٍ تَعودُ إلى ما قَبْلَ التَطَوُّرِ العَقْلِيّ لَدى الشُعوبِ الزراعِيَّة. ثمة مُعْتَقَداتٌ وَمُمارَساتٌ دينِيَّةٌ قَديمة تَحَوَّلَتْ مع الزَمَنِ عاداتٍ وَتَقاليدَ اجتِماعِيَّة، كالتبصير وقراءة الكف. وثمة طُقوسٌ ومُمارَساتٌ تُواكب الأعْيادَ المَسيحِيَّة كالتَقْدِماتِ الحَيَوانِيّةِ وَالقَرابين وَالزيّاحات، مَرَدُّها إلى تَقَمُّصِ آلِهَةٍ زِراعِيَّةٍ رَبيعِيَّةٍ **كأدونيس** في أوْلِياء وَقِدّيسين «لا نَزالُ نُحْرِقُ لَهُم البَخور»[٢٦]. وَمَنْ يرافِقَ فريحة في مَحطّاتِ عَرْضِهِ التاريخِيّ يَسْتَخْرِجُ مِنْ ذاكِرَتِهِ اللاواعِيَة حَقيقَةَ مُمارَساتٍ دينِيَّةٍ واجتِماعِيَّة غَيْرِ مَنْطِقِيَّة يَتَبَيَّنَ جُذورَها التاريخِيَّة مِنْ خِلالِ المَشْهَدِيَّةِ التي تَرْتَسِمُ أمامَه.

تَناوَل فريحة العاداتِ وَالتَقاليدَ الحَميدَةَ بِكَثيرٍ مِنَ الثَناءِ وَالمَديح، ذَوْدًا عَنْها وَتَعْبيرًا عَنْ تَعَلُّقِهِ بِها وضَرورَةِ الحِفاظِ عَلَيْها رُكْنًا مِنْ أرْكانِ الهُوِيَّةِ

٢٦) أنيس فريحة، دراسات في التاريخ، ص. ٤٥.



التُراثيَّة اللُبْنانيَّة. لِذا خَصَّص مَساحَةً مُعْتَبَرةً لِلْتَذْكير بِالقِيَم وَالفَضائِل اللُبْنانيَّة، كالنجدة والتماسُك العائِلِيّ والتعاون في الشدائد وَصِفاتٍ تُشَكِّل رَكائِزَ العَيْش القَرَوِيّ البَسيط. وَخَوْفَ ضَياعِ القَرْيَةِ كَحَضارَةٍ لُبْنانيَّةٍ بِفِعْلِ اجْتياحِ الحياةِ العَصْرِيَّةِ لَها أَصْدَرَ كتابه **القرية اللبنانيّة حضارة في طريق الزوال**.

إن الجُهود وَالإِمْكانات للكَشْفِ عَنْ مَحاسِنِ وَمَساوِئِ العاداتِ وَالتَقاليد لا تَتَوَقَّفُ على عَتَبَةِ الأبْوابِ الموصَدَة. وليس فريحة مِنَ طِرازِ مُؤَرِّخين يَجْتَنِبونَ اقْتِراحَ الحُلول مَهْما بَلَغَتِ الاشكاليّاتُ صُعوبَةً وَتَعْقيدًا. فهو بِأُسْلوبِهِ اقْتَرَحَ عِلاجاتٍ اجْتماعِيَّةً بَعيدًا مِنَ المَسائِلِ السِياسِيَّةِ المُباشَرَة، وَبِغَيْرِ صِيَغٍ طائِفِيَّةٍ أَوْ إيديولوجِيَّةٍ تُراوِحُ مَكانَها وَتُفاقِمُ الأزَمات.

تَرَكَّزَتِ الحُلولُ المُقْتَرَحَةُ بِشَكْلٍ مَركَزِيٍّ على لُبْنان، تمامًا كما تَمَحْوَرَتْ مَفاهيمُ فريحة حَوْلَ العاداتِ وَالتَقاليد. لذا دعا إلى إعادَةِ إحْياءِ التُراثِ الشَعْبِيِّ بِوَجْهِهِ المُشْرِق، وَجاءَ نِداؤُهُ وسْطَ تَبَدُّلٍ سَريعٍ لأساليبِ العَيْشِ في القُرى الجَبَلِيَّةِ اللُبْنانِيَّة. وَإِزاءَ ازدياد الظَواهِرِ المُؤَدِّيَةِ إلى زَوالِ حَضارَةِ القَرْيَةِ سَجَّلَت الفَضائِلُ والعاداتُ الحَميدَةُ انْخِفاضًا مُطَّرِدًا. وجاءت دعوته المُلِحّة بإحياء أعْيادٍ وَطَنِيَّةٍ تَشْمُلُ اللُبْنانِيّينَ جَميعًا، إلى جانِبِ الأعْيادِ الدينِيَّةِ المُتَنَوِّعَة.

ومن أسلوبه اعتمادُ الرَسائِل، يشير فيها إلى أن المُعْضِلَةَ السِياسِيَّةَ في لُبْنان تَعودُ إلى الثَقافَةِ الطائِفِيَّةِ المُتَجَذِّرَةِ في النُفوس، وإلى أن العاداتِ وَالتَقاليدَ القَديمَةَ تَمُدُّ النَسيجَ الاجْتِماعِيَّ المُنْقَسِمَ على ذاتِه بِأَسْبابِ الحَياة في مَعْناها السَلْبِيّ. وَأَضافَ في اقْتِراحٍ مُتَّصِلٍ أَنَّ تَوْحيدَ الذَوْقِ يُمَثِّلُ الخُطْوَةَ الأولى نَحْوَ تَوْحيدِ الأُمَّةِ سِياسِيًّا[27]. وَلَعَلَّها المَرَّةُ الوَحيدَةُ التي تَطَرَّقَ فيها إلى شَأْنٍ سِياسِيٍّ لُبْنانِيٍّ بِصورَةٍ صَريحَةٍ وَمُباشَرَة.

لَمْ يَدَّعِ اخْتِصاصًا لا يَفْقَهُهُ بلْ تَجَنَّبَ مَواضيعَ عدة كانَ على دِرايَةٍ واسِعَةٍ فيها. وَفَضَّلَ – إلى تَخَصُّصِهِ في اللُغاتِ القَديمَة – الاهتمامَ بِمَسائِلَ اجتماعِيَّةٍ تَطالُ اللُبْنانِيّينَ في صَميمِ حَياتِهِم، فاختار العاداتِ والتقاليد مدركًا أنّ ما يُقَدِّمُهُ يوقظ الذاكِرَةَ الجَماعِيَّةَ لدى اللُبْنانِيّين مِنْ خَدَماتٍ تَدْفَعُ بهم إلى التطوّر. هكذا أصاب ظاهرةً وَطَنِيّةً واجْتماعِيّةً قديمة، وأرْشَدَ إلى أَقْرَبِ السُبُلِ لِمُعالَجَةِ مُشْكِلاتِنا مِنْ جُذورِها الاجتماعِيَّة، أي مِنَ المَكانِ الصَحيح. وأكد في الشأن السياسي على مَصْدَرِ الخَلَلِ الأَساسِيِّ في الأُمَّة

٢٧) أنيس فريحة، سوانح من تحت الخروبة، جروس برس، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.

وَمَكْمَنِهِ في البُنْيانِ الاجتماعِيّ. صحيح أنه تَرَكَ السِياسَةَ لأَصْحابِها لكنه أرسى مَدْرَسَةً تَقومُ على جَمْعِ التُراثِ اللُبْنانِيِّ قَبْلَ انْدِثاره، وإعادَةِ رَبْطِهِ بِجُذورِه التاريخِيَّة، والتَعَمُّقِ بِدِراسَةِ خَصائِص وَسِماتِ مُجْتَمَعاتٍ عِدَّة وَمُلاحَقَةِ ظَواهِرِها. هكذا فَتَحَ الأُفُقَ واسِعًا أمامَ الطُلّابِ والباحثين في التاريخ وعِلْمِ الاجتماع والميثولوجيا والأَلْسُنِيَّة، لِيَقومَ كُلٌّ مِنْهُم في حَقْلِ اخْتِصاصِه بِأَبْحاثٍ عِلْمِيَّة، مُتَّكِئًا على مَخْزونِ فريحة وَنِتاجِهِ الغَزيرِ في بابِ العُلومِ الإِنْسانِيّة.

الأُصول والمراجع

١. باللغة العربيّة

- بولس جواد، **التحولات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الاسلام**، دار عواد للطباعة، بيروت، (ب.ت)؛
- حتي فيليب، **تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخيّة إلى عصرنا الحاضر**، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٢؛
- حنّا الفغالي حنا، **رسائل شموني**، (ط. ١)، مطبعة جريدة الدبّور، بيروت، ١٩٤٨؛
- الخوري شكري، **قصّة فنيانوس**، تحقيق سليم قهوجي، منشورات جامعة الروح القدس، الكسليك، ٢٠٠٩؛
- الراسي سلام، **في الزوايا خبايا**، دار نوفل، بيروت، ٢٠٠٦؛ لحد خاطر، **العادات والتقاليد اللبنانية**، ج. ١–٢، مطبعة الجبل، درعون، ١٩٧٧.
- رستم أسد، **مصطلح التاريخ**، المكتبة العصريّة، صيدا، ١٩٥٥؛ كمال الصليبي، **تاريخ لبنان الحديث**، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٣؛
- شرف جان، **الإيديولوجية المجتمعية**، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٩٦.
- عبّود مارون، **الأمير الأحمر**، (ط. ١)، دار نظير عبّود للطباعة والنشر، جونية، ٢٠١٢؛
- فريحة أنيس، **أسماء الأشهر العربية ومعانيها**، دراسة فيلولوجية تاريخية، دار العلم للملايين، ١٩٥٢.
- فريحة أنيس، **اسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها**، مطابع الكريم،جونية، ١٩٦٥.



- فريحة أنيس، **إسمع يا رضا**، مطبعة الكريم، جونية، ١٩٦٥.
- فريحة أنيس، **الأمثال العامية اللبنانية من رأس المتن**، منشورات الجامعة الأميركية، بيروت، ١٩٥٣.
- فريحة أنيس، **حضارة في طريق الزوال «القرية اللبنانية»**، مطبعة الكريم، جونية، ١٩٥٧.
- فريحة أنيس، **دراسات في التاريخ**، دار النهار للنشر، ١٩٨٠.
- فريحة أنيس، **سوانح من تحت الخروبة**، جروس برس، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.
- فريحة أنيس، **قبل أن انسى**، دار النهار للنشر،١٩٨٠.
- فريحة أنيس، **معجم الألفاظ العامية في اللهجة واللبنانية**، مطبعة المرسلين اللبنانيين، جونية، ١٩٤٧.
- فريحة أنيس، **ملاحم وأساطير من الأدب السامي**، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٦٧.
- فريحة أنيس، **ملاحم وأساطير من أوغاريت (رأس شمرا)**، منشورات الجامعة الاميركية، بيروت، ١٩٦٦.

٢. باللغات الأجنبيّة

- BOTTERO J. – KRAMER S., *Lorsque les dieux faisaient l'homme, mythologie mésopotamienne*, Editions Gallimard, Paris, 1993.
- CAQUOT A. – SZNYCER M. – HERDNER A., *Textes Ougaritiques I. Mythes et légendes*, (Coll. LAPO), Paris, 1974.
- CAQUOT A. – TARRAGON M. – CUNCHILLOS J.L., *Textes Ougaritiques II. Textes religieux et rituels, Correspondance*, (Coll. LAPO), Paris, 1989.
- INGLEBERT Hervé, *Le Monde, l'Histoire. Essai sur les histoires universelles*, PUF, Paris, 2014.

* الصور مع هذا الموضوع مأخوذة من كتاب أنيس فريحة **القرية اللبنانية – حضارة في طريق الزوال**.